

فجرُ القُدَى والإيمان

من قصص الأنبياء

للصغار واليافعين

عيسى

١٥

دار القلم العربي

للأطفال

من قصص الأنبياء

للصغار والياfecين

- ١- آدم عليه السلام
- ٢- نوح عليه السلام
- ٣- هود عليه السلام
- ٤- صالح عليه السلام
- ٥- إبراهيم عليه السلام
- ٦- إسماعيل عليه السلام
- ٧- يوسف عليه السلام
- ٨- شعيب عليه السلام
- ٩- أيوب عليه السلام
- ١٠- يونس عليه السلام
- ١١- موسى عليه السلام
- ١٢- داود عليه السلام
- ١٣- سليمان عليه السلام
- ١٤- زكريا ويحيى عليهما السلام
- ١٥- عيسى عليه السلام
- ١٦- محمد صلى الله عليه وسلم

من قصص الأنبياء ، قصص أنيرت وزيدت إشراقاً بذكر أخبار رسل الرحمة والإنسانية ، رسل المحبة والسلام ، حقاً إنهم كانوا فجر الهدى والإيمان ، صلوات الله عليهم وسلامه ، الذين أناروا ظلام عقول البشر ، واقتلعوا منها الأوهام والأباطيل ودعوا إلى عبادة إله واحد لا شريك له ، بدءاً من آدم عليه السلام وإنهاءً بخاتم الأنبياء والمرسلين ، محمد صلى الله عليه وسلم الذي أخبره الله تعالى في سورة هود عن نبأ من تقدمه من رسل وأنبياء . قال الله تعالى : (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا ثَبَّتْ بِهِ فُؤَادُكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

الناشر

فَجَرُّ الْهُدَى وَالْإِيمَانِ

عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ

عَلَيْهِ السَّلَامُ
الْمَسِيحُ

من قصص
الأنبياء
عليهم السلام



مراجعة : يوسف عبد الكريم عساني

إعداد وترتيب : زهير مصطفى

جميع الحقوق محفوظة لدار القلم بحلب ولا يجوز إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه
أو طباعته ونسخه أو تسجيله إلا بإذن مكتوب من الناشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مريم العذراء

كَانَتْ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، أَكْثَرَ نِسَاءِ قَوْمِهَا، تَعْبُدُ اللَّهَ وَطَاعَةً لَهُ، إِذْ كَانَتْ تَقْضِي مُعْظَمَ وَقْتِهَا، مُنْزَوِيَّةً فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ تَذْكُرُ اللَّهَ وَتَعْبُدُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ، بَعْدَ أَنْ كَفَلَهَا النَّبِيُّ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالَّتِي نَذَرَتْهَا أُمُّهَا لِتَكُونَ خَادِمَةً فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَفِيهَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ:

خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ أَرْبَعٌ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ.

ولادة عيسى

بَيْنَمَا كَانَتْ مَرْيَمُ الْعَذْرَاءُ مُعْتَكِفَةً، فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، مُتَعَبِّدَةً، مُطْمَئِنَّةً، لَا تَلْوِي^(١) عَلَى شَيْءٍ، بَعْدَ أَنْ رَضِيَتْ بِمَا قَسَمَهُ اللَّهُ لَهَا مِنْ خِدْمَةِ لِبَيْتِ اللَّهِ، إِذْ ظَهَرَ أَمَامَهَا مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ الرَّحْمَنِ، بِصُورَةِ رَجُلٍ، فَهَبَّتْ فِرْعَةً خَائِفَةً، وَهَاجَتْ نَفْسُهَا وَاضْطَرَبَتْ وَحَاوَلَتْ الْهَرَبَ، إِذْ ظَنَّتْهُ رَجُلٌ سُوءٌ. يُرِيدُ أَذِيَّتَهَا، وَهِيَ الطَّاهِرَةُ الْعَفِيفَةُ وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَعَثَ فِي نَفْسِهَا الْأَمْنَ وَالطَّمَأِينَةَ، إِذْ خَاطَبَهَا الْمَلَكُ بِقَوْلِهِ:

مَا أَنَا يَا مَرْيَمُ إِلَّا رَسُولُ رَبِّكَ، بَعَثَنِي لِأُبَشِّرِكَ بِغُلَامٍ زَكِيٍّ يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾.

وَعِنْدَمَا سَمِعَتْ مَرْيَمُ مَا قَالَهُ الْمَلَكُ، هَدَأَتْ نَفْسُهَا وَانْطَفَأَ غَضَبُهَا وَلَكِنْ سَرَتْ إِلَى نَفْسِهَا سَحَابَةُ حُزْنٍ عَمِيقٍ، وَدَاخَلَهَا

(١) لا تلوي: لا تهتم بأحد.

(٢) سورة مريم الآيات (١٦ - ١٩).

الْقَلَقُ وَالْحَيْرَةُ، إِذْ كَيْفَ تَكُونُ أُمًّا وَهِيَ الْفَتَاةُ الْعَذْرَاءُ، الَّتِي لَمْ يَمَسَّهَا رَجُلٌ قَطُّ؟. ثُمَّ اسْتَجْمَعَتْ قَوَاهَا وَقَالَتْ مُخَاطِبَةً الْمَلِكَ:

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَمٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ^(١) بَغِيًّا^(٢)﴾.

فَمَاذَا كَانَ جَوَابُ رَبِّهَا؟ انْظُرْ مَعِيَ إِلَى هَذَا الرَّدِّ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ الَّذِي إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ:

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا^(٣)﴾.

وَمَرَّتْ شُهُورٌ وَظَهَرَتْ عَلَيْهَا عَلَائِمُ الْحَمْلِ، يَا اللَّهُ، مَا أَقْسَى هَذِهِ الْحَالِ، مَا الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ بِي؟ وَمَاذَا أَفْعَلُ؟، أَيْنَ أَذْهَبُ؟، وَكَيْفَ أُوَارِي^(٤) مَا اسْتَتَرْتُ فِي أَحْشَائِي؟ وَمَاذَا سَيَقُولُ النَّاسُ عَنِّي؟ عَذْرَاءٌ لَا زَوْجَ لَهَا تَحْمِلُ وَتَلِدُ!! يَاللَّعَجَبَ.

لَا شَكَّ أَنَّ قَوْمَهَا سَيَظُنُّونَ بِهَا الظُّنُونَ، وَسَيَتَّهِمُونَهَا فِي شَرَفِهَا وَعِفَّتِهَا، وَسَتَلُوكُ سِيرَتَهَا الْأَلْسُنُ، وَيَتَنَشَّرُ خَبَرُهَا بَيْنَ

(١) أك: أكن، حذفت النون للتخفيف.

(٢) سورة مريم (٢٠).

(٣) سورة مريم (٢١).

(٤) أوراي : أخفي وأستر.

النَّاسِ، دَارَتْ هَذِهِ الْأَفْكَارُ فِي رَأْسِهَا، فَأَفْزَعَتْهَا وَأَخَافَتْهَا وَبَعَثَتْ فِي نَفْسِهَا الْحَيْرَةَ وَالاضْطِرَابَ، فَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَّا أَنْ اعْتَزَلَتْ النَّاسَ، وَابْتَعَدَتْ عَنْهُمْ وَاتَّخَذَتْ لِنَفْسِهَا مَكَانًا قَصِيًّا^(١)، فِي مَدِينَةِ النَّاصِرَةِ^(٢) مَسْقُطِ رَأْسِهَا، لِتُخْفِيَ الْجَنِينَ عَنْ أَعْيُنِ الرُّقَبَاءِ، وَلَكِنْ كُلَّمَا تَقَدَّمَتْ بِهَا الْأَيَّامُ، كَانَ حُزْنُهَا يَكْبُرُ وَيَزْدَادُ، فَمَا هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ حَتَّى يُفْتَضَّحَ أَمْرُهَا وَيَشِيعَ بَيْنَ النَّاسِ مَا كَانَتْ تُخْفِيهِ وَعِنْدَهَا كَيْفَ سَتُوجِهُ النَّاسَ؟ وَكَيْفَ سَتُدَافِعُ عَنْ نَفْسِهَا، وَقَدْ انْكَشَفَ مَا اسْتَتَرَ، وَهِيَ الْفَتَاةُ الْمَعْرُوفَةُ بِالطُّهْرِ وَالْعَفَافِ، وَهِيَ الَّتِي تَنْتَمِي إِلَى أُسْرَةٍ شَرِيفَةٍ كَرِيمَةٍ، فَأَبُوهَا لَمْ يَكُنْ امْرَأً سَوِيًّا أَوْ شَرًّا، وَأُمُّهَا لَمْ تَكُنْ بَغِيًّا، أَمَّا قَوْمُهَا فَلَنْ يَرْحَمُوهَا، مَعَ أَنَّهَا لَمْ تَفْعَلْ شَيْئًا يُغْضِبُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ. إِنَّهُ لَمَوْقِفٌ يَصْعُبُ عَلَى الْمَاجِنَةِ الْمَارِقَةِ، فَكَيْفَ لَا يَكُونُ صَعْبًا وَمُرًّا، مُذَاقُ هَذَا الْمَوْقِفِ الَّذِي ابْتُلِيَتْ بِهِ مَرْيَمُ الْعَذْرَاءُ.

وَفِي غَمْرَةِ هَذِهِ الْوَسَاوِسِ وَالْأَحْزَانِ، اسْتَسَلَمَتْ مَرْيَمُ لِقَضَاءِ رَبِّهَا الَّذِي اضْطَفَّاهَا مِنْ بَيْنِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، فَاتَّجَهَتْ إِلَى رَبِّهَا عَابِدَةً شَاكِرَةً، سَاجِدَةً رَاكِعَةً، وَرَضِيَتْ وَاطْمَأْنَنْتْ، أَوْلَمْ يُخَبِّرْهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهَا سَتَلِدُ مَنْ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، أَلَيْسَتْ هَذِهِ

(١) قَصِيًّا: بَعِيدًا.

(٢) النَّاصِرَةُ: مَدِينَةُ فِي فِلَسْطِينَ.

المُعْجِزَةُ بِكَافِيَةٍ لِلرَّدِّ عَلَى أُنْبَاءِ قَوْمِهَا؟.

أَلَيْسَتْ هَذِهِ الْمُعْجِزَةُ كَفِيلَةً بِرَدِّ التُّهْمَةِ عَنْهَا وَتَبْرِئَتِهَا؟ يَقُولُ
اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى
نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرَيْمُ اقْنِئِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَزْكِى مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾
ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمُ أَيُّهُمُ
يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلِكَةُ يَمْرَيْمُ
إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ ﴿٤٥﴾﴾ (١).

وَأَزَفْتُ (٢) سَاعَةُ الْوِلَادَةِ، تِلْكَ السَّاعَةُ الَّتِي كَانَتْ تَتَوَجَّسُ
مِنْهَا خِيفَةٌ، وَخَرَجَتْ مَرْيَمُ الْعَذْرَاءُ وَهِيَ تُعَانِي مِنْ آلامِ
الْمَخَاضِ (٣)، تَارِكَةً قَرْيَتَهَا كَيْلًا يُكْشَفُ أَمْرُهَا، وَقَادَهَا الْأَلَمُ
وَالْوَجَعُ إِلَى نَخْلَةٍ يَابِسَةٍ. جَلَسَتْ تَحْتَهَا وَحِيدَةً حَزِينَةً، تُعَانِي
الْآلَمَ الْمَخَاضِ دُونَ أَحَدٍ يُسَاعِدُهَا أَوْ يَعْطِفُ عَلَيْهَا... وَوُلِدَ
الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَضَمَّتْهُ إِلَى صَدْرِهَا وَجَعَلَتْ تَرْنُو إِلَيْهِ
وَهِيَ تَذْرِفُ الدُّمُوعَ، مُتَمَنِّيةً أَنْ تُفَارِقَ هَذِهِ الْحَيَاةَ قَبْلَ افْتِضَاحِ
أَمْرِهَا أَوْ أَنَّهَا لَمْ تُخْلَقْ بِالْكُلِّيَّةِ:

(١) سورة آل عمران (٤٢ - ٤٥).

(٢) أزفت: حانت.

(٣) المخاض: آلام الولادة.

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ، مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ (٢٢) فَأَجَاءَهَا (١) الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا مَنْسِيًّا ﴿ (٢) .

وَلَكِنْ مَا كَانَتْ تَخْشَاهُ قَدْ حَصَلَ، وَهَا هُوَ الطُّفْلُ بَيْنَ يَدَيْهَا، فَمَاذَا تَفْعَلُ؟ أَتَحْمِلُ ابْنَهَا وَتَظْهَرُ بِهِ عَلَى قَوْمِهَا؟ أَمْ تَبْقَى فِي مَكَانِهَا بَعِيدَةً عَنِ النَّاسِ؟ وَإِلَى مَتَى يَدُومُ هَذَا الْحَالُ؟ أَلَنْ يَنْكَشِفَ أَمْرُهَا؟ .

وَحَارَتْ مَرْيَمُ فِي أَمْرِهَا، وَغَلَبَهَا الْحُزْنُ وَالْهَمُّ، وَلَكِنَّهَا سَرْعَانَ مَا سَمِعَتْ صَوْتًا يُنَادِيهَا، أَفَاقَتْ لَهُ مِنْ غَيْبُوبَتِهَا، فَمَسَحَتْ دُمُوعَهَا وَأَصَاحَتْ السَّمْعَ وَإِذْ بِهِ يَقُولُ: لَا تَحْزَنِي يَا مَرْيَمُ وَانْظُرِي تَحْتَكِ تَرَى الْمَاءَ الْفُرَاتَ (٣) يَجْرِي (فِي هَذِهِ الْبُقْعَةِ الْجُرَذَاءِ) وَهَژْئِي جِذْعَ النَّخْلَةِ لِيَسْقُطَ الثَّمَرُ اللَّذِيذُ، فَكُلِّي وَاشْرَبِي لِتَسْتَعِيدِي بَعْضَ قُوَّتِكَ، وَاطْمَئِنِّي فَهَا هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَرْسَلَ الْمَاءَ يَجْرِي، وَالنَّخْلَةَ الْيَابِسَةَ ثَمِيرًا، إِكْرَامًا لَكَ وَتَطْيِيبًا لِحَاطِرِكَ. وَإِنْ صَادَفَتْ بَعْضَ الْبَشَرِ فِي طَرِيقِكَ فَقُولِي لَقَدْ نَذَرْتُ الصَّوْمَ، وَلَنْ أَكُلَّمْ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ أَحَدًا مِنَ الْبَشَرِ:

(١) فَأَجَاءَهَا: أَلْجَأَهَا.

(٢) سورة مريم (٢٢، ٢٣).

(٣) الفرات: العذب.

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبِّكِ تَحَمُّكَ سَرِيًّا﴾^(١) ﴿٢٦﴾ وَهَزِيءَ إِلَيْكَ
يَجْذَعُ النَّخْلَةُ تَسْقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا^(٢) ﴿٢٧﴾ جَنِيًّا فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا
تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ
إِنْسِيًّا﴾^(٣).

وَحَمَلْتُ مَرْيَمُ وَلَيْدَهَا وَاتَّجَهْتُ إِلَى قَوْمِهَا بَعْدَ أَنْ سَكَنَ
فُؤَادُهَا، وَهَذَا رَوْعُهَا، وَمَا إِنْ رَأَوْهَا حَتَّى أَخَذُوا يُؤَنِّبُونَهَا،
وَيَسْأَلُونَهَا عَنْ سِرِّ هَذَا الْوَلِيدِ الَّذِي تَحْمِلُهُ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَتَكَلَّمْ
سِوَى أَنَّهَا قَالَتْ: إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا، فَلَنْ أَرُدُّ عَلَيْكُمْ،
فَإِنْ أَرَدْتُمْ مَعْرِفَةَ الْحَقِيقَةِ، فَهَا هُوَ ذَا الْغُلَامِ، كَلِّمُوهُ، وَاسْأَلُوهُ.

لَكِنَّ الْقَوْمَ دُهِشُوا مِنْ قَوْلِهَا، وَسَخِرُوا مِنْهَا، فَكَيْفَ يُكَلِّمُونَ
مَنْ هُوَ فِي الْمَهْدِ؟ فَانْطَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَلِكَ الْوَلِيدَ، وَجَعَلَهُ
يَتَكَلَّمُ كَمَا يَتَكَلَّمُ الْكِبَارُ:

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرِئٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾^(٢٧) يَتَأَخَتِ
هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ
نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي
نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ

(١) سرياً: نهراً.

(٢) رطباً: التمر.

(٣) سورة مريم (٢٤ - ٢٦).

حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْ وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾.

أَفْبَعَدَ هَذِهِ الْمُعْجِزَةِ، يُنْكِرُونَ بَرَاءَتَهَا، أَلَمْ يَنْطِقْ ذَلِكَ الْوَلِيدُ، وَجَاءَهُمْ بِأَمْرِ لَمْ يَعْتَادُوا عَلَيْهِ، وَبُرْهَانٍ سَاطِعٍ عَلَى طَهْرَهَا وَبَرَاءَتِهَا، أَلَيْسَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَهُ بِدُونِ أَبِي، وَهُوَ الَّذِي أَنْطَقَهُ فِي الْمُهْدِ، أَمَّا قَوْمُهَا فَقَدْ بُهَرُوا بِمَا سَمِعُوا، وَأَكْبَرُوا ذَلِكَ الطِّفْلَ وَشَاعَ أَمْرُهُ بَيْنَ النَّاسِ، وَعَلِمُوا أَنَّ هَذَا الْوَلِيدَ سَيَكُونُ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ. وَلَكِنَّ فِتْنَةً مِنَ النَّاسِ قَلِيلَةً، أَنْكَرَتْ مَا سَمِعَتْ، وَظَنَّتْ أَنَّ مَا سَمِعَتْهُ مَا هُوَ إِلَّا حَدِيثُ خُرَافَةٍ أَوْ أَنَّهُ مِنْ ابْتِدَاعِ أَهْلِهَا لِيَذْفَعُوا التُّهْمَةَ عَنْهَا، وَلِيُظْهِرُوا بَرَاءَتَهَا، أَمَّا مَرْيَمُ فَلَمْ تَلْتَفِتْ إِلَى هَذِهِ الْفِتْنَةِ الظَّالِمَةِ وَجَلَسَتْ فِي بَيْتِهَا مَعَ طِفْلِهَا تَرْعَاهُ وَتَحْمِيهِ، وَهِيَ سَعِيدَةٌ هَانِئَةٌ الْبَالِ، قَرِيرَةُ النَّفْسِ مُنْشَرِحَةُ الصَّدْرِ.

مَنْشُؤُهُ وَنُبُوَّتُهُ

تَرَعَّرَعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَنَشَأَ فِي كَنَفِ أُمِّهِ الَّتِي مَا بَخَلَتْ عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ، حَتَّى شَبَّ وَكَبِرَ وَأَخَذَ يَلْعَبُ وَيَلْهُو مَعَ

أَقْرَانِهِ مِنَ الْأَطْفَالِ، إِلَّا أَنَّ فَضْلَهُ وَمَظَاهِرَ نُبُوَّتِهِ، بَدَأَتْ تَظْهَرُ، فَهُوَ إِذْ يَسْأَلُهُ أَصْحَابُهُ عَنْ شَيْءٍ مَا، خَفِيَ، يُخْبِرُهُمْ بِهِ، بَلْ وَيَقِفُ أَمَامَ مُعَلِّمِهِ يَرُدُّ عَلَيْهِ خَطَأَهُ وَيُبَيِّنُ لَهُ الصَّوَابَ، وَرَحَلَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَعَ أُمِّهِ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَرَأَى مَا يَرَى مِنْ اخْتِلَافِ الْقَوْمِ، وَتَنَاحُرِهِمْ وَانْتِشَارِ الْفَسَادِ وَالطُّغْيَانِ فِي صُفُوفِهِمْ، فَلَمْ يَنْغَمَسْ كَمَا يَنْغَمَسُ الْأَطْفَالُ فِي سِنِّهِ فِي اللَّهْوِ وَالْعَبَثِ، بَلْ مَالَ إِلَى الْعِلْمِ يَنْهَلُ مِنْهُ، وَمَرَّتْ بِهِ السَّنُونَ، إِلَى أَنْ بَلَغَ الثَّلَاثِينَ مِنْ عُمُرِهِ، حَيْثُ تَلَقَّى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْإِنْجِيلَ، الَّذِي جَاءَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ.

فَأَخَذَ يَدْعُو النَّاسَ، إِلَى الدِّينِ الْجَدِيدِ، وَيُحَاوِلُ أَنْ يَرُدَّ الْيَهُودَ عَنْ فِسْقِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَمُؤَامَرَاتِهِمْ فِي قَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، فَاجْتَمَعَ حَوْلَهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، آمَنُوا بِهِ وَبِمَا جَاءَهُمْ مِنْ كِتَابٍ، وَاتَّبَعُوهُ وَسَارُوا عَلَى هَدْيِهِ، إِلَّا أَنَّ طَائِفَةً مِنَ الْيَهُودِ، أَنْكَرُوا نُبُوَّتَهُ، وَكَفَرُوا بِالْحَشْرِ، وَكَذَّبُوا بِيَوْمِ الْحِسَابِ، وَانْغَمَسُوا بِمِلذَّاتِ الدُّنْيَا، وَغَرَّهُمْ مَتَاعُهَا، وَشَعَرُوا بِالْخَطَرِ الْمُحْدِقِ بِهِمْ وَبِمَا سَيُؤُولُ حَالُهُمْ إِلَيْهِ، إِنْ اسْتَمَرَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مُحَارَبَتِهِمْ، وَإِنْكَارِهِ عَلَيْهِمْ انْغِمَاسَهُمْ فِي الشَّهَوَاتِ، وَتَهَالُكِهِمْ عَلَى اللَّذَّاتِ، فَاجْتَمَعُوا وَاتَّفَقُوا عَلَى مُحَارَبَتِهِ وَتَكْذِيبِهِ وَمُحَاوَلَةِ إِيْذَائِهِ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَانَ لَهُمْ بِالْمِرْصَادِ:

﴿وَمَكْرُوا مَكَرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾^(١).

وَاسْتَمَرَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى دِينِ اللَّهِ،
وَيُنذِرُهُمْ مِنْ عَاقِبَةِ عِصْيَانِهِ وَمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ، وَأَيَّدَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
بِالْمُعْجَزَاتِ، بَعْدَ أَنْ طَالَبَهُ النَّاسُ، بِمَا يُؤَيِّدُ رَأْيَهُ فَصَارَ يَخْلُقُ
مِنَ الطِّينِ الطَّيْرَ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَيَشْفِي الْأَعْمَى وَالْأَبْرَصَ، وَيُحْيِي
الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ:

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾^(٢) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي
إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ
الطَّيْرِ فَانْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ
وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

المعجزة الكبرى

خَرَجَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِصُحْبَةِ الْحَوَارِيِّينَ، وَهُمْ أَنْصَارُهُ
وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُ: يَدْعُو إِلَى دِينِ اللَّهِ، وَالْحَوَارِيُّونَ يَشْدُونُ مِنْ
أَزْرِهِ، وَيَقْفُونَ إِلَى جَانِبِهِ، يُسَانِدُونَهُ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ،

(١) سورة آل عمران الآية (٥٤).

(٢) سورة آل عمران (٤٨ - ٤٩).

يَذْفَعُونَ عَنْهُ الْأَذَى وَيَتَحَمَّلُونَ مَعَهُ مَشَاقَّ السَّفَرِ، وَيَحْمُونَهُ مِنْ
 أَعْيُنِ الرُّقَبَاءِ الَّذِينَ يَتَرَصَّدُونَهُ يُرِيدُونَ بِهِ شَرًّا. وَوَصَلَ عِيسَى
 عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَصَحْبُهُ أَثْنَاءَ تَرْحَالِهِ إِلَى صَحْرَاءَ مُجْدِبَةٍ، لَأَمَاءَ
 فِيهَا وَلَا زَرْعَ وَكَانَ الْحَوَارِيُّونَ صَائِمِينَ، فَاشْتَدَّ بِهِمُ الْعَطَشُ
 وَكَادَ أَنْ يَفْتِكَ بِهِمُ الْجُوعُ، وَتَهَالَكُوا وَوَهَنَتْ قُوَّتُهُمْ وَضَعُفَتْ
 عَزَائِمُهُمْ، فَجَلَسُوا يَتَشَاوِرُونَ فِيمَا يَفْعَلُونَ، وَالْأَعْدَاءُ يَتَرَبَّصُونَ
 بِهِمْ شَرًّا، وَخَرَجُوا وَقَدْ انْفَقُوا عَلَى أَنْ يَطْلُبُوا مِنْ عِيسَى عَلَيْهِ
 السَّلَامُ، أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ، يُطْفِئُونَ بِهَا جُوعَهُمْ
 وَظَمَاهُمْ، وَهُمْ بِهَذَا الطَّلَبِ غَيْرُ شَاكِّينَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوْ
 بِنُبُوَّةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَقَالُوا
 لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ:

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ
 الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا
 ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (١).

فَقَالَ لَهُمْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُحَذِّرًا، إِيَّاكُمْ يَا قَوْمُ مِنْ عَاقِبَةِ
 سُؤَالِكُمْ هَذَا، وَأَخْشَى أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْمَائِدَةُ فِتْنَةً لَكُمْ تَصْرِفُكُمْ
 عَنْ دِينِ اللَّهِ، فَلَمَّاذَا تَطْلُبُونَ تِلْكَ الْمُعْجِزَةَ، وَقَدْ أَجْرَى اللَّهُ عَلَى
 يَدَيِّ مُعْجِزَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَلَكِنَّ الْحَوَارِيَّيْنَ أَجَابُوهُ بِأَنَّهُمْ مَا زَالُوا

(١) سورة آل عمران الآيات (٥٢ - ٥٣).

مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَمْ يَطْلُبُوا هَذَا الطَّلَبَ إِلَّا لِيَسْأَلُوا رَمَقَهُمْ وَيَمْنَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمُ الْمَوْتَ جُوعًا أَوْ عَطَشًا وَعِنْدَمَا رَأَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ إِصْرَارًا عَلَى طَلَبِهِمْ، دَعَا اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مَائِدَةً تُنْقِذُهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ:

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ

فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ .

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَائِدَةً عَامِرَةً بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا وَشَكَرُوا اللَّهَ الْعَظِيمَ، وَتَحَدَّثَ النَّاسُ عَنْ هَذِهِ الْمُعْجَزَةِ الْبَاهِرَةِ وَالآيَةِ الْعَظِيمَةِ، فَاَمَنَّ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ أَمَّا الْحَوَارِيُّونَ فَازْدَادُوا إِيمَانًا فَوْقَ إِيمَانِهِمْ، وَيَقِينًا فَوْقَ يَقِينِهِمْ.

(١) سورة المائدة الآية (١١٢ - ١١٥).

رفع عيسى إلى السماء

لَمْ تُفْلَحْ مُحَاوَلَاتُ الْيَهُودِ الْفَاسِقِينَ، مِمَّنْ غَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، فَكَفَرُوا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَبِرَسُولِهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي إِرْغَامِهِ عَنِ التَّخَلِّي عَمَّا جَاءَ فِيهِ، بَلِ اسْتَمَرَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي نَشْرِ دَعْوَتِهِ وَفِي التَّصَدِّي لِلْفَاسِقِينَ مِنْ بَنِي قَوْمِهِ. بَلْ إِنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ اَزْدَادَ قُوَّةَ بِازْدِيَادِ أَنْصَارِهِ، بَعْدَ تِلْكَ الْمُعْجَزَاتِ الَّتِي آيَّدَهُ اللَّهُ بِهَا، فَازْدَادَ الْيَهُودُ حَنَقًا وَغَيْظًا، وَوَشَوْا بِهِ إِلَى مُلُوكِهِمُ الْكَفَرَةِ، وَصَوَّرُوهُ رَجُلًا مُثِيرًا لِلْفِتَنِ، خَارِجًا عَنِ الْقَانُونِ، مُتَطَلِّعًا إِلَى الْمُلْكِ، مُتَّامِرًا عَلَى الْمُلُوكِ.

لَكِنَّ الْيَهُودَ تَسَرَّبَ إِلَيْهِمُ الْيَأْسُ، وَقَنَطُوا مِنْ مُحَاوَلَةِ مُقَاوَمَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَصْحَابِهِ، فَمَالُوا كَعَادَتِهِمْ إِلَى الْحِيلَةِ وَالْخَدِيعَةِ، إِذْ بَنُّوا الْجَوَاسِيسَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، يَنْشُرُونَ السُّمُومَ وَالْأَفَاوِيلَ، وَيُشِيعُونَ بَيْنَ النَّاسِ، أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَا هُوَ إِلَّا سَاحِرٌ، أَخَذَ بِسِحْرِهِ عُقُولَ النَّاسِ وَأَنَّ مُعْجَزَاتِهِ مَا هِيَ إِلَّا مِنْ فِعْلِ الشَّيْطَانِ وَأَنَّهُ مَارِقٌ فَاسِقٌ خَرَجَ عَنْ دِينِهِمْ وَكَفَرَ بِنَبِيِّهِمْ، وَذَهَبَتْ مُؤَامَرَاتُهُمْ أَذْرَاجَ الرِّيَّاحِ، وَعِنْدَمَا شَعَرُوا بِأَنَّ النَّاسَ، أَخَذُوا يَنْفَضُّونَ عَنْهُمْ، وَخَافُوا إِنْ اسْتَمَرَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي نَشْرِ دَعْوَتِهِ أَنْ تَذْهَبَ رِيحُهُمْ وَتَنْقَطَعَ ثُرُوتُهُمْ، أَجْمَعُوا عَلَى أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِيَسْتَأْصِلُوا أَصْلَ الدَّاءِ، الَّذِي

أَرْقَ مَضَاجِعَهُمْ فَعَقَدُوا الْعِزْمَ عَلَى قَتْلِهِ، وَبَيْنَمَا هُمْ فِي هَمِّهِمْ وَيَأْسِهِمْ وَخَوْفِهِمْ عَلَى مَا آَلَتْ إِلَيْهِ حَالُهُمْ، دَخَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَتْبَاعِهِ، وَهَمَسَ فِي آذَانِهِمْ، أَنَّهُ يَعْرِفُ مَكَانَ عِيسَى، وَشَجَّعَهُمْ عَلَى قَتْلِهِ، فَفَرَحَ الْقَوْمُ وَأَسْرَعُوا إِلَى الْمَلِكِ، الَّذِي أَرْسَلَ مَعَهُمْ جُنُودًا لِإِحْضَارِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَلَكِنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَدْ عَلِمَ بِكَيْدِهِمْ، وَبِمَا أَخْفَوهُ وَأَدْرَكَ أَنَّ رِجَالَ الْمَلِكِ يُلاحِقُونَهُ فَأَخَذَ يَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ، فَلَا يَسْتَقِرُّ فِي مَكَانٍ، دُونَ أَنْ يَتَوَقَّفَ عَنْ نَشْرِ دَعْوَتِهِ، وَلَكِنَّ الْجُنُودَ وَأَتْنَاءَ بَحْثِهِمُ الْمُخْمُومَ عَنْ عِيسَى وَأَتْبَاعِهِ، عَثَرُوا عَلَيْهِ فِي مَحْبَتِهِ وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَكُنْ لِيُمْكِنَ أَعْدَاءُهُ مِنْ عِيسَى، إِذْ أَخْفَاهُ عَنْ أَعْيُنِ النَّاطِرِينَ وَرَفَعَهُ إِلَيْهِ، فَوَقَعَ نَظَرُهُمْ عَلَى رَجُلٍ شَدِيدِ الشَّبَهِ بِهِ، فَقَيَّدُوهُ وَاقْتَادُوهُ إِلَى سَاحَةِ صُلْبٍ فِيهَا، وَهُمْ يَخْسِبُونَ أَنَّهُمْ صَلَبُوا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ النَّسَاءِ:

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاعُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (١).

هَذَا وَبَعْدَ النَّبِيِّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَقِيَ النَّاسُ مُدَّةَ طَوِيلَةٍ

(١) سورة النساء الآيات / ١٥٧ - ١٥٨ .

دُونَ أَنْبِيَاءَ، إِلَى أَنْ اسْتَفْحَلَ أَمْرُهُمْ وَصَارُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ
وَالْأَوْثَانَ، مِنْ دُونَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَأَرْسَلَ اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ نَبِيَّ
الْبَشَرِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ وَخَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ
اللَّهِ، ﷺ، لِيُعَلِّمَهُمْ وَيُزَكِّيَهُمْ وَيَهْدِيَهُمْ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ، بَعْدَ أَنْ
بَشَّرَ بِهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَمَا أَخْبَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِذَلِكَ:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعُوا إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ
الْتَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرُسُولِي يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ
مُبِينٌ﴾ (١).

(١) سورة الصف الآية / ٦ .